الدكتور اميل توما ، **جذور القضية الفلسطينية**
(مركز الابحاث ، م. ت. ف. ، بيروت : ١٩٧٣)

لم نكن على ما يبدو معنيين بدراسة الانتاج الادبي والفكري والسياسي في أرضنا المحتلة . لقد كان سور يقوم ما بيننا وبين اخوتنا هناك . وبينما كانوا هم يحاولون سماع كل كلمة ترددها الاذاعات العربية ، وقراءة كل كلمة تنشرها صحفنا كنا نحن عنهم لاهين . ومن هنا نستطيع ان نقول بأن بعدنا كان جفا ولكن بعدهم كان وفا .

وطالت الجفوة سنوات ، الا أنها لم تتحول الى قطيعة ذلك أن بعض المعنيين بالارض المحتلة أخذوا يكتشفون الحركة الادبية والفكرية فيها . وكان من هؤلاء الشهيد غسان كنفاني . ولقد حاول غسان ان يعرفنا بأدب الارض المحتلة : شعرا ونثرا ونقدا ، ثم تبع غسان اخرون ، وأخذت الصحف تنشر مما تقع عليه من قصائد وقصص . ومرت فترة ظن المرء فيها أن الارض المحتلة لا تنتج الا قصصا وقصائد ، مع أن ما نشر من قصصها وقصائدها خارج الارض المحتلة ليس الكثير .

وحين صدر كتاب صبري جريس : العرب في الارض المحتلة ، بدأنا نشعر ان هناك انتاجا في الارض المحتلة غير الشعر والقصة . ولكننا اكتفينا ولم نبحث عن المزيد . وكنا نمر مرور الكرام على صحف الارض المحتلة فلا نهتم الا بقصيدة تعجبنا لاول وهلة ، او قصة نجد فيها ما يشدنا اليها .

ومن هنا فنحن لا نعرف ماذا يصدر في الارض المحتلة قبل سنة ١٩٦٧ ، ولم نكلف أنفسنا بعد عناء أن نعرف . والكتب التي تطبع هناك — اذا استثنينا شعر عدد محدود من الشعراء — تبقى غريبة عنا حتى بالاسم والعنوان .

وقصة الكتاب الذي بين أيدينا قصة تستحق الرواية . لقد نشر على حلقات في مجلة الجديد التي تصدر في الارض المحتلة . ثم نشر في كتاب. ولم تثر الحلقات ولا الكتاب اهتمام احد ليكتب سطرا في صحيفة عربية ، خارج الارض المحتلة . وكنت ذات مرة أبحث عن مراجع في مكتبة مؤسسة الدراسات الفلسطينية فاكتشفت الكتاب . واستعرته للقراءة . وشعرت عند قراءته بالاغتباط الشديد ، لانني وجدت دراسة هامة تبحث جذور القضية الفلسطينية ، كما لم تبحث من قبل . ذلك أن هذه الصفحات التي تبلغ قرابة ثلاثمائة لا تضم معلومات فحسب ، بل تضم تحليلا أيضا . واذا كانت المعلومات هامة ومنتقاة بعناية ، ومستقاة من مراجعها الاصلية ، فأن التحليل يتسم بقدر كبير من العلمية والموضوعية والنفاذ . ومع أن عدد الكتب التي تعالج القضية الفلسطينية كبير ، فان هذا الكتاب يحتل مكانا خاصا بينها ، ويسد حاجة ضرورية .

وقد وعى المؤلف الهدف من اصدار كتابه على الرغم من فيض الكتب الصادرة . فهو يقول : « وقد لا يستطيع احد ان يزعم وجود نقص في الكتب والابحاث التي تناولت القضية الفلسطينية، فهي تكاد لا تحصى ولا تكف دور النشر عن اصدارها ، ولكن المرء يستطيع ان يدرك ان هذا الفيض بحد ذاته يوحي بتعقيد القضية وحاجتها الى تعميق الوضوح وتكثيفه » .

ويضيف المؤلف : « ولهذا احسست بضرورة كتابة هذه الحلقات . فكتب القضية الفلسطينية في العالم العربي لونتها الصهيونية ، بحيث اضاعت موضوعيتها ، وزيفتها الامبريالية حتى افقدتها الصلة بالعلمية ... أما الكتب في العالم العربي فاكثرها أهمل عناصر خطيرة اجتمعت في القضية الفلسطينية وضخم عناصر اخرى فأضاع التوازن ... »

ويضيف المؤلف أيضا : « وعلى هذا الضوء من التطاول على التاريخ ان أدعي ان هذا الكتاب سيضع الامور في نصابها ويحدد الخطوط الفاصلة في قضية لا تزال ملتهبة وتؤلف عقدة القرن العشرين الكبرى ... انما من حقي أن أقرر انه محاولة لفهم القضية الفلسطينية على ضوء فرضيات الاشتراكية العلمية في التاريخ» (المقدمة). ولذلك كله رأيت أن يعاد طبعه ، للاسباب التالية: اولا : لانه يغني معرفتنا بالقضية الفلسطينية وبجذورها ويعيننا على فهم طبيعتها وتعقيداتها . ثانيا : لانه من انتاج الارض المحتلة قبل سنة ١٩٦٧ . ثالثا : لانه يمثل تجربة رجل ، عاش القضية وناضل من اجلها منذ الثلاثينات ، وما زال يعمل حتى هذه اللحظة .